

## بعض محددات التحول الاجتماعي بمدينة تازة (المغرب) في عهد الحماية الفرنسية

(\*) جلال زين العابدين

باحث في التاريخ وعلم الاجتماع،  
حاصل على الدكتوراه من كلية الآداب  
والعلوم الإنسانية، سايس - فاس.

### مقدمة

لقد كشفت سنوات مرحلة الحماية عن عمق التحولات الاجتماعية وتموجاتها، من خلال بروز مظاهر وظواهر جديدة، كخروج المرأة وعملها وتعلمها، وتغير الذوق الاستهلاكي للمجتمع التازي، لجهة الميولات والأزياء والممارسات، حيث أصبح النموذج الأوروبي المكروه هو المرغوب فيه الضابط لغلبة المهيمن. وعلى هذا الأساس، فإن التحولات الاجتماعية التي شهدتها تازة لا يمكن فهمها واستيعاب توجهاتها، إلا في سياق تفكيك شفرة التغير الاجتماعي الذي شهده المغرب برمته، بعيداً من أي قراءة تصنيفية أو انطباعية انسجاماً مع مطلب الموضوعية الذي يتطلب التركيز على دراسة التحول، وتمثله كما وقع مع استحضار كل الفاعلين المساهمين فيه. وسيتبين حينها أن هذا التحول قد حدث بمقاييس خاصة ساهمت في وضعها الإدارة الاستعمارية، ورفض المجتمع جزءاً منها وتبنى آخر، وهو ما يجعلنا في النهاية أمام هجانة وتعدد في المرجعيات والهويات التي أطرت هذا التحول. إذًا، ما هي بعض محددات التحول الاجتماعي بمدينة تازة في عهد الحماية الفرنسية؟

### أولاً : تفاعل المجتمع المحلي مع الحضور الفرنسي

#### ١ - الرؤية المركزية لإدارة التواصل

كان من الطبيعي أن يخلق الحضور الفرنسي بمدينة تازة عدة تحديات، ارتبطت أساساً بكيفية تفاعل المجتمع المحلي مع معطيات المرحلة، ومكوناتها ذات المنبع الأوروبي الصرف والغريب والمختلف عمّا يعرفه الفضاء المغربي من اعتقادات وأذواق.

تفهمت مؤسسة الحماية هذه الفروقات، فحرصت على خلق قنوات واستغلال كل الفرص لربط جسور المراقبة بين مؤسساتها وعناصر السلطة في المجتمع المغربي. وقد تجلت هذه الأمور في الأشكال التنظيمية التي استثمرتها الإقامة العامة لصالح سياسة الاختراق المرتكزة على ضرورة التحكم في الهوة الموجودة بين الإدارة الواقعة تحت إشرافها وبين المغاربة، مشكّلة بذلك قنوات عديدة تمكنها من التحكم في المجال عبر رصد التسلل إلى الحياة اليومية الخاصة للسكان. وهكذا فمدينة تازة لم تخرج عن هذا الإطار، خصوصاً وأنها نقطة ذات بعد أمني بامتياز في الرؤية المركزية لإدارة الإقامة العامة، الأمر الذي سينعكس مباشرة على وسائل التدخل في المجال الاجتماعي بمدينة تازة.

إن مسألة التواصل بين المغاربة والأجانب خلال فترة الحماية، حظيت باهتمام الأوساط الاستعمارية، وبخاصة أن المغربي كان لفترة طويلة يرفض التعامل مع الأجنبي وينظر إليه كدخيل، ومستعمر، ونصراني ورومي وجب الحرص على عدم مخالطته، إلا في حالة الضرورة حيث تمد له اليد اليسرى (Rivet, 2002: 25-26). ويتضح من ذلك أن محاولة رصد التحولات التي طرأت على مواقف، وسلوكات، وذهنيات، وتصورات المغاربة إبان الحماية ومدى تفاعلهم مع المحتل كحضارة، وثقافة، ولغة، وسلوك، وقيم وطقوس يعد من الأمور المعقدة جداً، على اعتبار أن مواقف وسلوك الأفراد لا تقاس من الناحية الاجتماعية فحسب، بل ترتبط بالمشاعر وبالأحاسيس العميقة، وبالتالي فقياسها صعب (مؤمن، ٢٠٠٣: ج ٢، ٤٥٢).

وقد حرصت سلطات الحماية على إيجاد قنوات متعددة لربط جسور التواصل بينها وبين المجتمع المحلي، فقامت باستمالة وإشراك النخب في تسيير الشأن المحلي. وفي هذا الصدد يقول ليوطي «حماية لا حكم مباشر. احكم مع أهل البلد لا ضدهم، لا تُسئ إلى أي تقليد، ولا تُبدل أي عادة، وحّد بين طبقة الحكام ومصالحنّا» (لاندر، ١٩٨٢: ١١٠). لذلك كان أول شيء أقدمت عليه السلطات الفرنسية في تازة مباشرة بعد احتلال المدينة، هو تعيين اسي هاشم بن الحاج المدني السملالي باشا على مدينة تازة في ١٠ أيار/مايو ١٩١٤ (Gouvion et 2001: 808). واختيار إدارة الحماية لأسرة السملالي يرجع إلى تجذرها ومكانتها التاريخية في المدينة، وتأثيرها الذي لا ينكر في أوساط السكان، حيث كانت تعرف مكانة الرجل وقيّمته المعنوية، وتستعمل ذلك النفوذ لتمرير قراراتها ولتجنب المعارضة. وعلى الرغم من تقويض سلطات الباشا مع مرور سنوات الحماية، إلا أنها لم تستطع الاستغناء عنه أو تجد له بديلاً بسبب قوته الفاعلة في المجتمع لإنجاح سياستها الأهلية.

وبالإضافة إلى الباشا، كان المجلس البلدي الذي خلق بمدينة تازة سنة ١٩١٧، مؤسساً على أساس خليط من الفرنسيين والمغاربة. فقد بلغ عدد الأعضاء المغاربة في اللجنة البلدية<sup>(١)</sup> بتازة سنة ١٩٢٣ تسعة من أصل سبعة عشر عضواً. ويمكن القول، إنه رغم وجود

(١) يرأسها الباشا أو القائد، والنائب عنه فيها هو رئيس المصالح البلدية، ويبين ظهير ١٩١٧ أن هناك نوعين من اللجان البلدية: «اللجنة البلدية الأهلية» وتتركب من أعضاء كلهم أهالي، ما عدا رئيس المصالح البلدية، وإذا ارتأى الباشا أن يقسمها إلى قسمين يتركب أحدهما من أعضاء مسلمين يكلفون بشؤون مسلمي المدينة وثانيهما من أعضاء يهود يكلفون بشؤون الملاح، فله ذلك. ثم «اللجنة البلدية المختلطة»، وتتكوّن من أعضاء =

المغاربة بكثرة في اللجنة البلدية، فإن دورهم لم يكن فعالاً ومؤثراً داخلها، كما أن وجودهم لم يكن اقتناعاً بالدور الذي يمكن أن يلعبه الأعيان على المستوى المحلي، بقدر ما كان محاولة من جانب سلطات الحماية للظهور بمظهر الدولة الحامية الحريصة على إشراك المغاربة في تسيير شؤونهم، وبالتالي فقد ظل دورهم هامشياً وشكلياً، وساهم في ترسيخه جهل العناصر الأهلية باللغة الفرنسية التي كانت لغة المداولات (De La Casinière, 1924: 15).

كما أنشأت سلطات الحماية فروعاً أهلية في غرف الفلاحة والتجارة والصناعة، للمزيد من الانخراط الأهلي، ثم لخلق قناة للتواصل بين إدارة الحماية وممثلي الساكنة المغربية. وقد أحدث القسم الأهلي المختلط للفلاحة والتجارة والصناعة بمدينة تازة بموجب القرار الوزاري المورخ بـ ٩ آذار/مارس ١٩٣١، واشتمل في البداية على عشرة أعضاء، منهم تسعة مسلمين وعضو واحد من اليهود (الجريدة الرسمية، ١٩٣١: ٦٠٣ - ٦٠٤). وقد ارتفع عددهم سنة ١٩٣٦ إلى ١١ عضواً (Archives Nationale de Rabat, 1936: 2)، ثم إلى ١٢ عضواً سنة ١٩٤٥ (الجريدة الرسمية، ١٩٤٥: ١٥٠). ويمكن القول أن الفرع الأهلي للفلاحة والتجارة والصناعة الذي ضم في تشكيلته أعيان المدينة ووجهائها، كان أداة طيعة لتمرير جميع المشاريع المرغوب فيها من الغرف المهنية الفرنسية.

واستفاد منظرو الاستعمار الفرنسي من التجارب السابقة، إذ لم يتبنوا المنهج الإقصائي لمكونات الأهالي الثقافية والدينية والاجتماعية، بل عملوا على ترسيخ مبدأ المحافظة على البنيات التقليدية، وذلك لأن السلطات الاستعمارية أصبحت مضطرة لتوظيف فكرة الإبقاء على تراث المستعمر ونظمه وعاداته مع الالتزام بأجندة إلحاقية مخطط لها بدقة (بوزيطة، ٢٠٠٤: ١٩٧). فأقامت مجتمعاً أوروبياً عصرياً متكامل الأوصاف بإزاء المجتمع المغربي التقليدي، فكل تعليمات ليوطي كانت تركز على «أنه لا داعي لإزعاج المغاربة في قعر أعرافهم فيتركوا على ما كانوا عليه، وأن يتعايش المجتمعان على أساس الجوار وليس الاختلاط» (بوطالب، ٢٠٠٠: ٩٤). فجاء الحفاظ على المدينة العتيقة ومآثرها التاريخية جزءاً من المحافظة على العالم الآخر الخاص بالأهالي حتى لا يتأثروا عند مس مآثرهم (ألوزاد، ١٩٨٨: ٢٧١ - ٢٧٢)، وشيدت بجانبها مدينة أوروبية لتوفير شروط الإقامة المناسبة، استأثرت بجل المرافق الإدارية والاقتصادية والخدماتية.

= أهليين وأوروبيين، وللباشا أيضاً إذا بدا له أن يقسمها إلى قسمين أو ثلاثة: قسم من الأوروبيين لتدبير شؤون المدينة الأوروبية، وقسم من الأهالي لتدبير شؤون المدينة الأهلية، ويمكن تجزئة هذا القسم إلى جزئين، جزء من المسلمين وآخر من اليهود. وعند اجتماع سائر أعضاء اللجنة، فإن الأوروبيين يجتمعون وحدهم، والأمر نفسه بالنسبة إلى المغاربة، ويباشر كل قسم مفاوضات ومناقشات، ثم يلتئم الكل في جلسة عمومية لجمع آرائهم. وقد تألفت أول لجنة بلدية في مدينة تازة بعد إقامة النظام البلدي (فاتح أيار/مايو ١٩١٧) من الأهالي فقط، حيث ضمت أربعة من كبار الأعيان المغاربة هم: عزوز المقرئ، الحاج الطيب الأزرق، محمد ولد القرع الوجاني، ومولاي أحمد بن محيي الدين (الجريدة الرسمية، ١٩١٧: ٣٤٢-٣٤٣، والجريدة الرسمية، ١٩١٧: ب: ٤٩٥).

## ٢ - الفلسفة العمرانية لسلطة الحماية

إن ميدان التعمير شكل مجال افتخار الفاعلين الاستعماريين، إذ زعموا تحقيق مغرب يحتضن انصهار المتناقضات، التي تتمثل في تعايش المدن العتيقة في المدن المستحدثة. إلا أن روح هذه التصورات الاستعمارية المثبته بفلسفة ليوطي الحمائية اصطدمت بالواقع الذي أفرزته هذه العملية (بوزويته، ٢٠٠٤: ١٩٨)، وبات التعمير يكتسي طابع الازدواجية والتميز بين المدينة الجديدة بشوارعها الفسيحة المعبدة والمظلة بالأشجار، ومنازلها الجميلة والمتناسقة والمجهزة بكل مستلزمات الحياة العصرية، وبين المدينة الأصلية التي أصبحت منازلها وشوارعها عاجزة عن احتواء قوافل المهاجرين الفارين من جحيم البوادي المجاورة، وتعكس بوضوح مبدأ التمييز الاجتماعي والعنقي الذي شكّل حجر الزوية في سياسة ليوطي العمرانية، والذي أدى - بشكل منطقي - إلى ميلاد أحياء صفحية يحاصر بها سكانها الأحياء القديمة والعصرية (تافسكا، ١٩٨٠: ١٠٨).

وهكذا فالفلسفة المعمارية/العمرانية التي تبنتها مؤسسة الحماية، والهادفة إلى التغيير التدريجي للأهلي وانتشاله من مدنه العتيقة واحتوائه وإحاقه بالثقافة والحضارة الفرنسيتين، لم تأتِ أكلها، ما دام أن عملية التشييد تأسست على خلفية استئصالية، مما حال دون تفعيل منظومة الفلسفة الليوطية القائمة على انصهار المتناقضات (التقليدي والعصري). فعوض الانصهار طفحت المتناقضات بشكل ملموس (بوزويته، ٢٠٠٤: ١٩٨). وقد ظل العالمان، عالم المغاربة الذي يعاني مشاكل واختلالات عدة، وعالم الأوروبيين المشرق الزاهر في معزل أحدهما عن الآخر، تفصل بينهما حواجز اجتماعية وعرقية. فلم يكن الأوروبي يدخل حياً أهلياً إلا مرغماً. ولم يكن من المغاربة من يطمح في الاستقرار في الأحياء الأوروبية سوى النخبة من الأطر العليا في الإدارة المخزنية، أو أصدقاء الأطر الفرنسية من المتعاونين. أما باقي الأهالي، فلم يكن يُسمح لهم عملياً بولوج الأحياء الأوروبية إلا للخدم في منازل الأجانب، وباعة الجرائد والحمّالين في أسواق المدينة. وكان بعض المتسولين الذين ضاقت بهم أزقة وأحياء المدينة القديمة يعبرون الحدود سراً لعلّهم يجدون أوروبياً يخفف مساوئ المنافسة المهنية بسبب انتشار العوز والفاقة في الأحياء الأهلية (تافسكا، ١٩٨٠: ١٠٨).

في الوقت ذاته، أقامت السلطات الاستعمارية بعض المؤسسات التعليمية والصحية لفائدة «الأهالي» وحاولت توظيف هذه المشاريع الاجتماعية لخدمة مصالحها، فأرادت أن تجعل التعليم يقوم بدور هيكلية الذهنيات وإخضاع القيم الثقافية الأصلية، وخلف فئة وسيطة تتبنى ثقافة المستعمر وقيمه الحضارية، ولكن دائماً مع مراعاة الحفاظ على التوازن بين المنظومة التعليمية التقليدية والعصرية الحديثة (بوزويته، ٢٠٠٤: ١٩٨). وهنا يجب التأكيد أن السياسة التعليمية نجحت في اختراق الأسر المغربية، وإجبارها على الانخراط في مسلسل التغيير ولا أدل على ذلك تعليم البنات الذي شكّل تحولاً كبيراً في حياة المجتمع المغربي.

وشكلت السياسة الصحية مدخلاً جذاباً للإقامة العامة لتجميل و«أنسنة» حقيقتها الكولونيالية عبر اختراق الأهالي وربط الجسور معهم على حساب حاجاتهم الملحة. فاكشفاهم نجاعة الطب الحديث وعلميته جعلهم يغيّرون علاقتهم الاعتقادية في الوسائل التقليدية، الأمر الذي سجل لمصلحة نقط الطبيب الفرنسية بالمدينة، حيث أضحت محجاً «للأهالي» من داخل المدينة وخارجها، فأصبح بذلك الأهالي مغيّراً من نظرتهم للطبيب النصراني، بل صار كل مريض شفي وسيلة إظهارية في المدينة والأحواز للطبيب الفرنسي.

ومن الفضاءات التي شكلت أيضاً مجالاً لتواصل الأهالي بالمعمر، قطرة الحليب (La grotte de Lait)، وهي دار للحضانة رأت النور في مدينة تازة في تموز/ يوليو ١٩٣٠، وكانت تحت رعاية زوجة المقيم العام (Lucien Saint) (Le Maroc Oriental, 1934a). وقد رسم لها في البداية هدف تربية الأطفال ورعايتهم، كما كانت تقوم بتحسيس الأمهات بطرق تربية الأطفال العصرية، وتتكفل بالرضع الذين يعانون سوء التغذية، وتقوم بتلقيحهم ضد الأمراض وتقدم للمصابين منهم ما يلزمهم من الأدوية وتوزع عليهم علب الحليب ورضاعات وصل عددها على سبيل المثال سنة ١٩٣٢ إلى ٦٠٠٠ رضاعة، في حين قدر العدد اليومي للأطفال الذين تحتضنهم قطرة الحليب<sup>(٢)</sup> بـ ٣٠ طفلاً (Guide Touristique-Taza, 1930). وبعد ذلك أصبح هذا الفضاء محجاً لكل العائلات التي تريد التبرع بالملابس والأحذية المستعملة لإعادة توزيعها على أبناء الفقراء والمعدمين (Taza Journal, 1933).

### ٣ - إشاعة ثقافة ترفيحية جديدة

عمدت إدارة الحماية إلى استكمال مخططاتها الرامية إلى إحداث تحولات اجتماعية، والتأثير في المعادلة الثقافية للبلد، عن طريق إشاعة ثقافة جديدة وتكريس قيم دخيلة لاستقطاب فئات عريضة من المجتمع المحلي وتفكيكه. فاهتمت بالجانب الترفيهي، وقامت بتشديد ثلاث قاعات سينمائية في المدينة شكلت متنفساً للأوروبيين المستقرين فيها، ثم فضاءات يقحم فيها الأهالي المتعودون على الأشكال الفرجوية التقليدية، بترسيخ ثقافة وعوائد جديدة لم يكونوا على علم بها من قبل. وقد أصبح في المدينة في عهد الحماية ثلاث قاعات للسينما، بلغت طاقتها الاستيعابية ١٢٥٧ مقعداً، وقدر عدد المتفرجين الذين توافدوا عليها خلال سنة ١٩٥٥ بنحو ١٢٧٤٠٠ متفرج، تركوا في خزانة القاعات السينمائية الثلاث ٣٠٠، ٤٧٣، ١ فرنك (Archives Nationale de Rabat, 1956: 407). وهذه القاعات هي: سينما ماجستك بزقة التجارة، تعدّ أول قاعة شيدت، وكانت في حوزة المعمر باليستر (Ballester). وسينما فرنسا بزقة رايمون - بوان كاري (Raymond Poin - Caré)، وكانت في

(٢) كانت هذه الدار تعتمد في ميزانيتها على منحة البلدية التي وصلت سنة ١٩٣٣ إلى نحو ٤٠٠٠ فرنك، وهو المبلغ نفسه الذي حصلت عليه سنة ١٩٣٤، ومساعدات خيرية لبعض الجمعيات كجمعية (Le Medi bouge) التي ساعدت قطرة الحليب بـ ٥٠٠ فرنك سنة ١٩٣٣، أو على تبرّعات بعض الأشخاص كما فعل السيد لوناكاريو بعد ازديان فراشه بمولودة سنة ١٩٣٤ حيث تبرّع على قطرة الحليب بمبلغ ٥٠ فرنك (Taza Journal, 1932 and 1933; Archives Nationale de Rabat, 1934, and L'avenir de Taza, 1934b).

حوزة المعمر بين (Penne) (Guide Touristique-Taza, 1930). ثم سينما الكوليزي (Le Colise) بشارع الماريشال ليوطي (Bibliothèque Nationale de Rabat, 1951: 959). وكانت هذه القاعات تحتضن أيضاً الأنشطة المسرحية وحفلات الرقص والموسيقى، وغيرها من الأنشطة ذات الطابع الترفيهي (Le Courrier du Maroc, 1947b).

وتجدر الإشارة إلى أن إدارة الحماية أصدرت في ١٧ أبريل ١٩٤٢، ظهيراً شريفاً أحدثت بموجبه لمنفعة البلديات وجيبة خصوصية تدفع عند الدخول إلى القاعات السينمائية. ويحدد هذا المبلغ في كل مدينة بقرار بلدي بعد موافقة نائب الحكومة لدى الصناعة السينماتوغرافية في المغرب من غير أن يتجاوز ٥ فرنكات للمقعد (الجريدة الرسمية، ١٩٤٢: ٧٠٦). وقد حددت بلدية تازة هذا المبلغ بـ ١٠ في المئة من ثمن التذكرة بالنسبة إلى القاعات المصنفة في الدرجة الأولى، و ٦ في المئة للقاعات المصنفة في الدرجة الثانية (Archives Municipale de Taza, 1944: 6)، كما أن هذه القاعات كانت ملزمة بدفع رسوم أسبوعية للبلدية تحدد على أساس مداخيل كل قاعة، وهي على الشكل التالي:

### الجدول الرقم (١)

#### نسبة الرسوم الأسبوعية المفروضة على القاعات السينمائية بتازة

المدخلات بالفرنك	نسبة الرسوم من المداخيل الإجمالية (بالمئة)
إلى حدود ٤٠,٠٠٠	٣
ما بين ٤٠,٠٠٠ و ٨٠,٠٠٠	٥
ما بين ٨٠,٠٠٠ و ١٢٠,٠٠٠	٨
ما بين ١٢٠,٠٠٠ و ٢٠٠,٠٠٠	١٤
أكثر من ٢٠٠,٠٠٠	٢٠

(Archives Municipale de Taza, 1944: 6-7).

المصدر:

### ٤ - بصمة رياضية ناجحة

واهتمت إدارة الحماية بالرياضة أيضاً، وخصصت لها اعتمادات مالية مهمة سواء من حيث المنح التي كانت تخصص للأندية الرياضية، أو من حيث التجهيزات. ويشكل الملعب البلدي أهم المنشآت الرياضية التي شيدت بالمدينة، وقد كان يحتضن إضافة إلى مباريات كرة القدم عدة أنشطة رياضية أخرى.

شهدت المدينة وجود عدة أندية رياضية، أشهرها النادي الرياضي التازي (Sporting Club Tazi) الذي أسسه مارسيل بيسون (Marcel Besson) (Lopez, 1995). وقد كانت له (النادي) فروع في عدة أنواع رياضية (كرة القدم، وكرة السلة، وكرة الطائرة، وكرة المضرب، والكرة الحديد، والسباحة، والعدو الريفي، والملاكمة) وتعددت شهرته المستوى المحلي. وبفضله كانت تصنف تازة في خانة أحسن مدن المغرب الرياضية، حيث كان هذا النادي ينظم عدة مسابقات وبطولات محلية وطنية في مختلف الرياضات، نذكر منها:

— تنظيم دوري في الكرة الحديد في ٨ حزيران/يونيو ١٩٤٧، استُدعي له أفضل الممارسين بالمغرب، وقد وصلت قيمة جوائزه ٣٠,٠٠٠ فرنك.

— تنظيم أمسية في رياضة الملاكمة في ٧ حزيران/يونيو ١٩٤٧، استُدعي لها أجود الملاكمين بالمغرب (Le Courier du Maroc, 1947c).

— تنظيم ملتقى سنوي للعدو الريفي، كان يحضره المشاركون من ست دول هي إنكلترا، وبلاد الغال، وإيرلندا، واسكتلندا، وبلجيكا وفرنسا. ومن الأسماء المغربية المحلية التي تألفت في هذا الملتقى في فترة الثلاثينات، نذكر الثلاثي المتكوّن من محمد بن العربي، والغازي، ومحمد بن الطاهر. وقد تم اكتشافهم وتطوير مهاراتهم من طرف القائد بيرنو (Pernaud) المكلف بالرياضة بأحد الثكنات العسكرية بالمدينة، ومدرّب فريق العدو الريفي بالنادي الرياضي التازي (Naboulet, 2003: 18).

وتبقى كرة القدم الرياضة الأكثر شعبية بالمدينة، حيث احتضنت تازة فريقين، هما: الجمعية الرياضية لتازة التي تأسست سنة ١٩٣٣، وضمت في صفوفها، إضافة الى الأوروبيين، بعض العناصر الأهلية (L'avenir de Taza, 1933)؛ ثم النادي الرياضي التازي الذي يعتبر فريق المدينة الأول بفضل الأدوار التي كان يلعبها على مستوى البطولة الوطنية. ومن الأسماء المغربية التي لعبت لهذا الفريق نذكر: التيجري، والركراكي، والأخوين السليمان (Naboulet, 2003: 19). ويبقى موسم ١٩٤٦ — ١٩٤٧ من أحسن مواسم هذا الفريق، إذ كان مرشحاً بقوة للعب مباريات السد، والصعود إلى القسم الشرفي (Le Courier du Maroc, 1947b)، وبخاصة بعد فوزه في مباراة الذهاب بمراكش على فريق الجمعية الرياضية المراكشية بطل مجموعة الجنوب بثلاثة أهداف لصفر، في انتظار مباراة الإياب بالملاعب البلدي بتازة يوم الأحد ١ حزيران/يونيو، والتي تعبأت لإنجاحها فاعليات و جماهير المدينة (Le Courier du Maroc, 1947c).

عرفت رياضة كرة السلة — بدورها — حضوراً قوياً، حيث تمكن فريق المدينة من الصعود إلى الدرجة الممتازة بالمغرب بعد انتصاره في مدينة بور ليوطي (القنيطرة) بتاريخ ٤ أيار/ مايو ١٩٤٧ على ممثل المدينة بـ ٢٨ نقطة مقابل نقطة. وهو ما دفع بالمسؤولين في المدينة إلى تنظيم حفل كبير على شرف فريق كرة السلة يوم الأحد ١١ أيار/مايو بملعب كرة السلة التابع للنادي الرياضي التازي (Le Courier du Maroc, 1947a). وسجلت رياضة السباحة هي الأخرى حضوراً في المدينة، من خلال تنظيم عدة تظاهرات في المسبح البلدي، أبرزها كأس رأس السنة الميلادية الذي كانت تبرمج فيه عدة مسابقات (Le Courier du Maroc, 1947a). ومن الرياضات الأخرى التي وجدت في المدينة — في عهد الحماية — نجد رياضة الملاكمة، وكرة الطائرة، والريكي، وسباق الدراجات.

إن الرياضة في المدينة، وإن ظلت في أغلب أنشطتها حكراً على الأوروبيين، فقد ساهمت في خلق نوع من التواصل بين المجتمعين الأهلي والأوروبي، سواء من خلال الممارسين المغاربة الذين أتيحت لهم فرصة مجاورة الأجانب، والاحتكاك بهم في بعض الفرق، أو من خلال الجمهور الأهلي الذي كان يحضر إلى الملاعب الرياضية للاستمتاع بفرجة رياضية دخيلة أثارت إعجابه. فبدأ ينبهر بالإنسان الأوروبي، ولا يتوانى في محاكاته وتقليده، وفي هذا الصدد يقول أندري آدم: «...لا يمكن أن نتجاهل أشكال تقليد الأوروبي وحضارته التي انتشرت عبر الصحافة، والإذاعة، والسينما بالإضافة إلى وجود الأوروبيين داخل المدينة المغربية، والهالة التي وجدوا بها داخل هذه المدن من خلال وضعيتهم المادية، ثم الأشكال والعادات الجديدة التي حملوها والتي أثارت إعجاب المغاربة وبخاصة الشباب...» (Adam, 1974: 179). وهذا ما أشار إليه دانييل ريفي أيضاً، حيث اعتبر السينما، والملاعب أو النادي الرياضي، وأماكن أخرى كالمقهى بمثابة فضاءات وأماكن لا تؤمن بالحواجز والتسييج الأيديولوجي. وقد شكلت جسراً للتواصل بين المجتمع المستعمر والمجتمع المستعمر ومجالاً للتعايش والاندماج، انطلاقاً من أنها الأمكنة العامة الأكثر قابلية لتجمع الساكنة المحلية والأجنبية. فشكل المقهى فضاء اللقاء بين العمال، والعساكر، والموظفين بالمعمرين، وكانت السينما بدورها مكاناً عاماً تتبادل فيه الأحاسيس والمشاعر، ثم الملعب أو النادي الذي كان يعرف تعايش المنخرطين والمتفرجين مغاربة وأجانب (Rivet, 2002: 35-36).

## ثانياً : معوقات ظاهرة الانفتاح والتواصل

غير أن ظاهرة الانفتاح والتواصل بين المجتمعين اصطدمت بالعديد من المعوقات. فقد أدى تجذر الاستقرار الأوروبي في المدينة واتساع دائرة الأنشطة الاقتصادية داخل الوسط الحضري، بشكل متزامن مع توسع المدينة الأوروبية، إلى تزايد الهوة بين المجتمعين «الأهلي» والأوروبي. فبدأت ترسم الحواجز الثقافية والمادية والنفسية بين الجانبين بشكل متزايد، وبخاصة أن الجاليات الأوروبية والفرنسية أساساً، حققت مكاسب عديدة في ظل التحولات الاقتصادية والاجتماعية التي تحققت، وأصبحت قوة ذات نفوذ كبير داخل المجتمع الاستعماري (مؤمن، ٢٠٠٣: ج ٢، ٤١٤). ذلك أن أقلية استعمارية بمدينة تازة استحوذت على مختلف الوظائف والمراكز الحساسة في الإدارة والمال والاقتصاد. وأصبحت تتحكم بمصير تطور المجتمع على جميع المستويات، وحرصت على خدمة مصالحها الرأسمالية. وتجسدت هذه الهيمنة من خلال عدة مؤسسات كالمجلس البلدي، والغرف المهنية، وتأسيس عدة جمعيات مختلفة المكونات والمقاصد بلغ عددها اثنتين وعشرين جمعية سنة ١٩٥١، نذكر منها على سبيل المثال (Bibliothèque Nationale de Rabat, 1951: 956): جمعية قدماء المحاربين وضحايا الحرب، واتحاد العائلات الفرنسية، وجمعية معمرى تازة، واتحاد أرباب الفنادق والمطاعم والمقاهي بتازة وناحيتها، وجمعية صندوق المدارس، وجمعية الضباط الاحتياطيين. وبفضل حضورها القوي، مارست شتى أنواع الضغط على السلطات العليا من أجل تحقيق أطماعها ورغباتها المتعددة على حساب عموم الساكنة



المغربية. وبرزت في هذا الإطار شخصيات استعمارية قوية فرضت هيمنتها على مختلف الهيئات التمثيلية المحلية لفترة طويلة من أبرزها: مورين، وبيالا، ولونكاريو، وسيكورا. أما الحضور الأهلي فتجسد في بعض الأعيان كمولاي أحمد محمد النجار التازي، غلال لمراني، سي محمد المقري، الحاج محمد شيبوب وباشا المدينة. إلا أن دورهم ظل هامشياً وشكلياً داخل هذه المؤسسات، بحيث اكتفى هؤلاء في كثير من الأحيان بمجارة مواقف المعمرين.

قامت الصحافة هي الأخرى بدور أساسي في الدفاع عن الأوروبيين ومصالحهم، والدعاية للحماية ومشاريعها. وعرفت المدينة في هذا الصدد تأسيس جريدتين محليتين هما: **مستقبل تازة** (*L'avenir de Taza*) التي صدر أول عدد لها في ١ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٣٣، وكانت تحت إدارة (A. Cavel). و**جريدة تازة** (*Taza - Journal*) التي صدرت في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٣١ وكانت تحت إدارة مؤسسها (J. Bonnaud). وقد اهتمت هاتان الجريدتان الأسبوعيتان بالقضايا المحلية والجهوية، ودافعتا بشراسة عن مصالح الجالية الفرنسية سواء تلك القاطنة بالمدينة، أو الكولون الذي استولى على أخصب أراضي ناحية تازة. كما طالبتا — بالحاح — باستمرار وجود عسكري قوي في المدينة، واحتفاظ مدينة تازة باستقلاليتها عن مدينة فاس. إلى جانب هاتين الصحيفتين، راجت في المدينة صحف أخرى مكتوبة بالفرنسية معبرة عن مصالح الحماية وما يدور في فلكها. وكان لبعض الصحف مراسلوها في الإقليم: مثل السيد (Borgnis Desbordes) مراسل **جريدة الرقيب المغربي** (*La Vigie Marocaine*)، و**بريد المغرب** (*Le Courrier du Maroc*)، و**صدي المغرب** (*L'Echo du Maroc*)، و(*Le Petit Marocain*)، والسيد دي ماريو (DiMario) مراسل **جريدة صدي وهران** (*L'Echo d'Oran*)، والسيد كافيل (A. Cavel) الذي كان مراسلاً وفي الوقت نفسه مديراً تقنياً **لجريدة المغرب الشرقي** (*Le Maroc Oriental*, 1934b). أما الصحف الناطقة بالعربية التي كانت تمس في مقالاتها مصالح الحماية، أو تفضح رجالات السلطة بالاقليم فكانت تعاني المضايقات، واضطر مراسلوها في أغلب الأحيان إلى استخدام أسماء مستعارة كمراسل **جريدة الرأي العام** الذي كان يرسل الجريدة باسم «البرنوصي» (**الرأي العام**، ١٩٥٢)، أو الاكتفاء بالحروف الأولى من أسمائهم ك «ع. ش.» بالنسبة إلى مراسل **جريدة الأطلس (الأطلس)** (١٩٣٧).

وفي الوقت الذي تمتعت الأوساط الأوروبية بجميع المرافق الخدماتية الأساسية، واستفادت من جميع الامتيازات القانونية والمادية، وعززت نفوذها داخل المجتمع، كانت الساكنة المحلية تتعرض لأبشع مظاهر الاستغلال، وعاشت ظروفاً اجتماعية قاسية جداً، كانت نتيجة للتحويلات الاقتصادية التي أحدثها المستعمر الفرنسي في المدينة ومحيطها، كما حرمت من أبسط الامتيازات والحقوق السياسية كحرية التجمع أو تأسيس الجمعيات أو النشر (العروي، ٢٠٠٧: ١٧٥).

## خلاصة

يتضح، انطلاقاً مما سبق، أن إدارة الحماية نجحت بسياساتها الأهلية في اختراق الأسر المغربية، وإحداث تحولات عميقة في بنية المجتمع الأهلي عبر اعتماد مجموعة من المداخل

التي ستصبح أساسية في الممارسة الاستعمارية. ويعتبر التعليم الحقل الذي راهنت عليه الإقامة العامة وتحمس له شخصياً ليوطي معتقداً بقدرة المدرسة على احتواء العقول وترويض المغاربة، وهذا ما يبرر تطور التعليم في المدينة بعد ١٩١٤، بحيث قامت السلطات الفرنسية بهيكولته وفق رؤية مغايرة كلياً لتلك التي كانت تتحكم فيه من قبل، وأقامته على أسس عرقية واجتماعية وأخرى سياسية، ودمجته فوق كل ذلك، في إطار الاستراتيجية التي كانت ترمي تحقيقها من خلال نظام الحماية ككل. وعرف التعليم مع تلك الهيكلية تطوراً تجلّى في ظهور مؤسسات تعليمية ابتدائية وثانوية ازداد الإقبال عليها مع مرور سنوات الحماية. وقد أدى التغير إلى إفراز مجموعة من النتائج كان لها أثر على تطور المجتمع المغربي ككل، سواء أثناء فترة الحماية أو بعدها.

وتُضاف السياسة الصحية إلى الآليات الاستعمارية، حيث ساهمت بشكل كبير في اختراق المجتمع التازي والوصول إلى الأهالي، واكتساب ثقتهم مما أحدث تغييراً في الاعتقادات السائدة لديهم والمتعلقة بانسلاخهم عن الممارسات التقليدية المعتمدة على الطب الشعبي الذي كشف عن محدوديته أمام جاذبية الطب المصري، خصوصاً بعد معاينتهم تحسن الوضع الصحي من جراء المجهود الذي بذلته إدارة الحماية للقضاء على العديد من الأمراض الوبائية التي كانت قبل مرحلة الحماية تحصد الكثير من الأرواح. ويمكن أن تثير هذه النقطة نقاشاً حول إيجابيات السياسة الصحية كما هي حال السياسة التعليمية، والتي ستأتي حتماً بجوابين: رأي يمجّد التجربة الصحية، ويرجع لها الفضل في ما حققته مقارنة بالوضعية السابقة للاستعمار ورأي ثانٍ يركز فقط على الجوانب السلبية ويرى أن فرنسا خدمت مصالحها من خلال سياستها الصحية دون مراعاة للجوانب الإنسانية التي يتطلبها التطبيب.

وعرفت مرحلة الحماية تحولاً في الحياة الاجتماعية للتازيين بخروج المرأة للعمل، وانهيار أوضاع شرائح اجتماعية عريضة، كـ «الطبقة العاملة» التي لم تعد قادرة بحكم دخلها الضعيف على مواجهة تكاليف المعيشة، الشيء الذي أدى إلى تفشي البطالة وانتشار حياة الفاقة والبؤس. واستكمالاً لمخططاتها الرامية إلى اختراق المجتمع المغربي بكل مكوناته، عملت إدارة الحماية على إنشاء مرافق رياضية، وتشجيع تنظيم تسلية جماهيرية، سعياً لتكريس قيم دخيلة ونشر ثقافة غربية اعتبرت غريبة، لم يكن بالإمكان رفضها كلياً، كما لم يكن الانخراط فيها نهائياً بسبب استراتيجية مسبقة وبسبب التباعد بين مجتمعين مختلفي المرجعية الثقافية ودرجة التقدم.

لقد أصبح المشهد الحضري يعبر في صورته العامة عن الأعطاب التي كانت قبل قدوم الاستعمار، والتناقضات التي نتجت عن تطبيق السياسة الكولونيالية، وهو أمر سيعمق من آثار التحول، ويجعل المجتمع التازي ينحو في اتجاهات جديدة، وخصوصاً مع حضور ميكانيزمات وآليات السياسة الأهلية، ومساهمتها في توجيه الذهنات وخلخلة الهوية، وخلق ثنائيات التقليدي/العصري، و«البلدي»/«الرومي»، لينكشف الامتزاج والالتقاء بين مكونات المجتمع التقليدي الأهلي ومكونات المجتمع الكولونيالي المهيمن.

## المراجع

الأطلس (١٩٣٧). الأطلس: السنة ١، العدد ٩، ٤ صفر ١٣٥٦ الموافق فيه ١٦ نيسان/أبريل ١٩٣٧.

ألوزاد، أحمد إبراهيم (١٩٨٨). «السياسة التمدينية للحماية الفرنسية.» ورقة قُدمت إلى ندوة: المدينة في تاريخ المغرب العربي. الدار البيضاء: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية. ج ٢.

بوزويطة، سمير (٢٠٠٤). «قراءة في كتاب دانييل ريفي: المغرب من ليوطي إلى محمد الخامس: الوجه المزدوج للحماية.» مجلة أمل، العدد ٣٠.

بوطالب، إبراهيم (٢٠٠٠). «التغير الاجتماعي والديموقراطية في عهد الحماية.» ورقة قُدمت إلى ندوة: الديمقراطية والتحويلات الاجتماعية بالمغرب. الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية. (سلسلة ندوات ومناظرات: ٨٦).

تافسكا، أحمد (١٩٨٠). تطور الحركة العمالية في المغرب، ١٩١٩ - ١٩٣٩. بيروت: دار ابن خلدون.

الجريدة الرسمية (١٩١٧). «ظهير شريف في تنظيم المجالس البلدية.» العدد ٢١٠، ١٠ رجب ١٣٣٥هـ - الموافق فيه ٧ أيار/مايو ١٩١٧م.

الجريدة الرسمية (١٩١٧ب): العدد ٢١٦، ٢٧ شعبان ١٣٣٥هـ الموافق فيه ١٨ حزيران/يونيو ١٩١٧م.

الجريدة الرسمية (١٩٣١). «قرار وزاري في إحداث قسم أهلي مختلط للتجارة والصناعة والفلاحة بتازة.» العدد ٩٦٢، ١٤ ذي القعدة ١٣٤٩هـ الموافق فيه ٣ نيسان/أبريل ١٩٣١.

الجريدة الرسمية (١٩٤٢). «ظهير شريف تحدّث بموجبه لمنفعة البلديات وجيبة خصوصية تدفع عند دخول القاعات السينماتوغرافية.» العدد ١٥٤٣، ٦ جمادي الأولى ١٣٦١هـ الموافق فيه ٢٢ أيار/مايو ١٩٤٢.

الجريدة الرسمية (١٩٤٥). العدد ١٦٨٧، ١٠ ربيع الأول ١٣٤٦هـ الموافق فيه ٢٣ شباط/فبراير ١٩٤٥م.

الرأي العام (١٩٥٢). السنة ٦، العدد ٢٤٦، ٢٨ آب/أغسطس ١٩٥٢.

العروي، عبد الله (٢٠٠٧). مجمل تاريخ المغرب. بيروت: الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.

لاندر، روم (١٩٨٢). تاريخ المغرب في القرن العشرين. ترجمة نقولا زيادة؛ مراجعة أنيس فريجة. ط ٢. بيروت: دار الثقافة.

مؤمن، عبد القادر (٢٠٠٣). «التحويلات الاقتصادية والاجتماعية بمدينة وجدة على عهد الحماية وأهم انعكاساتها (١٩٠٧ - ١٩٥٣).» (أطروحة دكتوراه في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهرز، فاس).

- Adam, André (1974). «L'occidentalisation de l'habitat dans les villes marocaines.» dans: «Les Influences occidentales dans les villes maghrébines à l'époque contemporaine: L'urbanisation au Maghreb système culturelles et systèmes urbaines, acte d'aixeprovince, mai 1970.» Centre de recherche et d'études sur les sociétés méditerranéens, Edition de l'université de Provence.
- Archives Municipale de Taza (1944). «Taxe sur les spectacles, Arrêté municipal permanent no. 105 en date du 14 Janvier 1944, Fixant le tarif de droits, taxes, redevances et autres produits perçus au profit du budget municipal».
- Archives Nationale de Rabat (1934). «Carton E1117, Budget Ordinaire de 1934, Listes des sociétés de Bienfaisance subventionnées par les municipalités».
- Archives Nationale de Rabat (1936). «Carton G 672, P-V de la séance du 20 novembre 1936 de la section indigène consultative mixte à Taza».
- Archives Nationale de Rabat (1956). «Carton S128, Etablissement de projection cinématographique (salles, places et recettes en 1955-1956.» Annuaire statistique du Maroc, Service central des statistiques.
- L'Avenir de Taza (1933). «Les sports à Taza.» *L'Avenir de Taza*: vol. 1, no. 8, 18 novembre.
- L'Avenir de Taza (1934a). «Taza-Groutte de Lait.» *L'Avenir de Taza*, vol. 1, no. 13, 23 décembre.
- L'Avenir de Taza* (1934b). *L'avenir de Taza*: vol. 2, no. 21, 13 février.
- Bibliothèque Nationale de Rabat (1951). «Annuaire marocain 1951 industriel, agricole, économique, commercial et financier, Imprimeries les Réunies, Casablanca..».
- Le Courrier du Maroc* (1947a). «Taza, Basket-Ball.» *Le Courrier du Maroc*: vol. 19, no. 5461, 8 mai.
- Le Courrier du Maroc* (1947b). «Sporting Club Tazi.» *Le Courrier du Maroc*: vol. 19, no. 5473, 22 mai.
- Le Courrier du Maroc* (1947c). «Sporting Club Tazi.» *Le Courrier du Maroc*: vol. 19, no. 5479, 29 mai.
- De La Casinière, Henri (1924). *Les Municipalités Marocaines: Leur développement et leur législation*. Casablanca: Imprimerie de la Vigie marocaine.
- Gouvion, Marthe et Edmond Gouvion (2001). *Kitab Aâyane al-Marhrib' l'Akca: Esquisse générale des Moghrebs de la Genèse à nos jours et Livre des grands du Maroc*. Paris: [n. pb.].
- Guide Touristique-Taza (1930). *Taza la berbère: Taza et sa région: Livret-guide officiel du syndicat d'initiative et de tourisme: Illustration de couverture par Carriat-Rolant: Editions Inter-presse: Vers 1930*. Taza: Editions Inter-presse. (Guide, Tourisme, Maroc)
- Lopez, Emile (1995). «Taza ou le destin d'une ville, parrainé par l'amicale des Tazis».
- Le Maroc Oriental* (1934a). «Taza.» *Le Maroc Oriental*: vol. 2, no. 57, 8 novembre.
- Le Maroc Oriental* (1934b). «Notre Armature.» *Le Maroc Oriental*: vol. 2, no. 60, 22 novembre.
- Naboulet, Edmond (2003). «Origines du sport a Taza.» *Le Courrier de Taza*: no. 34, décembre.
- Rivet, Daniel (2002). *Le Maghreb à l'épreuve de la colonisation*. Paris: Hachette littérature.
- Taza Journal* (1932). «P. V de la Séance du 21 novembre 1932 de la Commission Municipale.» *Taza Journal*: vol. 2, no. 54, 7 décembre.
- Taza Journal* (1933). «Groutte de lait de Taza.» *Taza Journal*: vol. 3, no. 67, 11 mars.